خلائق تنقصنا

الوثنية الاجتماعية

لاسماعيل مظهر

وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ ان نعبد الاصنام
[قرآن كريم]

في اليوم الذي تشكل فيه جمعية من الجمعيات الانسانية اسباب الأمن ، وتجتنب عبادة الاصنام ، تتفتح امامها ابواب الحضارة وتتئد خطواتها وتستقيم سبيلها التي تسلمها الى معارج القوة النفسية . ولا اقصد هنا بعبادة الاصنام اتخاذها أرباباً من دون الله ، فقد كفانا هداة الانسانية الاصنام وعبادتها ووجهونا إلى النور فلمسناه وأبصرنا أشعته الوضاءة تخترق الينا ظلام القرون الأولى . والظاهر أنّ الجمعيات الانسانية فيها خاصية تجعل حياتها بغير الأمن موصولة بعبادة الاصنام . فحيث لا يكون الأمن تكون عبادة الاصنام ، وعبادة الاصنام لا تكون الا حيث ينتفي الامن ويهدد أبناء آدم في اقواتهم وارزاقهم واقدارهم المعنوية بصفة انهم من الآدميين . لهذا نجد ان كل جمعية من الجمعيات سادتها سلطات الأفراد واستبدت بهم ارادة الكبراء من السادة والنبلاء ، انحدرت سريعاً الى عبادة الاصنام مصبوغة بصبغة جديدة . فانهم ان لم يعودوا الى عبادة اوثان يخلقونها بايديهم ، خلقوا في مخيلاتهم اوثاناً يعظمها الوهم ويفخمها الخيال ، فتصبح حياتهم وقد امتلأت بالاوثان الكثيرة المتعددة ، فهذا له وثن في صورة زعيم ، وذاك له وثن آخر في صورة رئيس ، وثالث له وثن في صورة موظف ، ورابع له وثن في صورة وزير ، وخامس له وثن في صورة وظيفة او كرسيّ ما يملؤه في فراغ الحكومة . ومن هنا ينحدر الناس انحداراً آخر فيخيل اليهم ان تلك الاوثان التي جسمتها مخيلاتهم وفخمتها أوهامهم قد أصبحت جزءاً من حياتهم وقسماً من أقسامهم التي يرددونها في صدورهم ، فتكبت فيهم كل صفة انسانية عالية ليحل محلها صفات لا تكون الا حيث يكون الخوف من الاوثان بما يحوطهم به الخيال من الأساطير والخرافات التي تتحول مع الزمن فتصبح عقائد ثابتة

هذه الصورة التي رسمتها في الأسطر السابقة ، على بشاعتها وغلظتها ، وعلى ما فيها من السيئات والقبائح ، ينطبق أكثر ما فيها على مجتمعنا ، بل اني لا أبالغ اذا قلت انها صورة مرسومة من المجتمع الذي اعيش فيه واشعر بنقائصه ، وأنشد له الكمالات . صورة تعبر ادق تعبير عن تنكرات وآراء يحاول الكثيرون ان يخفوها في انفسهم حذر أن تبطش بهم الأوثان المفخمة زوراً ، المضخمة بهتاناً وإفكاً . مثلهم في ذلك مثل الانسان في عصور الظلام عند ما كان يجبل من الطين او الحجر صورة يتخذها وثناً يعبده . فهو الهه ولعبته ما دام بين يديه يصوره ويجلو اجزاءه وتقاسيمه، فاذا فرغ من ذلك العمل الفني وخرَّ له ساجداً، ملأته الرهبة واخذ بخناقه الخوف والرهب فانكمش وراح يحوط وثنه بانواع الاساطير وضروب الخرافات ، ويحوك من حوله الحوادث وينسب اليه الكرامات، ويضفي عليه من القوى ما يشاء وهمه ان يضفي مالم تحقق الطبيعة في تضاعيف الوجود منه شيئاً

***

والانسان البدائي إن فعل ذلك وساقه وهمه إليه ، فهو انما يفعله سوقاً بعامل من الحياة يدفعه الى البحث وراء قوة تحميه من أعاصير الطبيعة التي تحوطه والسباع التي تتهدده والامراض التي تبتليه والرياح التي تتناوح من حوله وهزيم الرعود التي تصم أذنيه . أما الانسان الحالي، الانسان الذي تقول إفكاً وزوراً انه بلغ من مدارج الرقي مبلغاً جعله يفقه ما هي قيمة الحياة عامة ، وما هي قيمة الحياة الانسانية خاصة ، وانه تسنم بقوى عقله تلك الذروة التي بلغ عندها حد تقديس المثاليات بما فيها الحرية والصراحة والصدق الى آخرها في قائمة الفضائل التي عددها الفلاسفة ورجال الأخلاق . ذلك الانسان انما يعود بعد طول الجهاد في سبيل التحرر العقلي والنفسي الى عبادة الأوثان في صور جديدة ، مسوقاً هو كذلك بعامل من الحياة يدفعه الى طلب النجاة من قسوة النظام الاقتصادي الذي يحوطه وقسوة نظام المجتمع الذي يجعل للطبقات شأناً لا تخوله لها القوانين ولا تجيزه الشرائع . أما اذا كانت نتيجة ذلك الجهاد الطويل الذي بذل الانسان فيه غاية الجهد ، والصراع الفذ الذي يروي لنا التاريخ وقائعه قائمة بين الانسان وقوى الشر والاستعباد ، أن تعود الجماعات الانسانية الى عبادة الأوثان ممثلة في اشخاص من رجال الحكم او الدجاجلة أو المشعوذين ، أو ممثلة في حاجات الحياة التي يمنعها النظام الاجتماعي عن كل من يريد ان يتحرر من تلك الأوثان التي اقعدت جل طبقاته وساقتها سوقاً الى الذلة والخضوع والاستسلام ، فالأجدر بنا ان نقول ان الانسان لم يربح من جهاده المرير خلال كل الاحقاب الماضية الا أمراً واحداً ، هو الاعتقاد بأنه في بداءة الجهاد ، وان الماضي برمته لم

يكن الا مقدمة لم تنقطع بعد بعض مراحلها . والآن فما الفارق الحقيقي بين ذلك الوثن الذي كان يصوره الانسان البدائي بأصابعه ويخلقه في الصورة التي تلذ له ليعبده من بعد ذلك ويسجد له ، وبين أوثان العصر الحاضر ، كذي السلطان الحكومي الذي يستخدم سلطانه في سبيل استعباد الذين يلونه في المرتبة ، او المشعوذ الذي يستهوي صغار العقول ، او الدجال السياسي الذي يسوق أمامه الجماهير سوقاً ، مستغلاً فيهم الثقة أو الجهل ، أو متخذاً من سذاجته وتحيره سبيلاً الى اخضاعهم ، مستخفياً وراء كلمات رنانة مما أدخل الفلاسفة في قاموس المثاليات . تلك المثاليات التي لم يؤمن بها دجال واحد من دجاجلة السياسة في عصر من عصور التاريخ . وانما اتخذوها أداة ووسيلة ليكفل لهم بها اضافة قوة الى انفسهم ترفعهم مع ما يرفعهم من بقية ضروب الدجل والاختلاق ، الى مرتبة الأوثان

***

وفي الحق ان الانسان قد جهد وعمل طوال عصور مديدة على ان يبيد تلك الأوثان على اختلاف صورها ، وان يرمي بها في حفر الماضي . ولقد كان جهاده في سبيل ذلك جهاداً صادقاً أفنى فيه كثيرون ممن تتبرم زمرة الانسانية أعمارهم الكريمة . ففي عصر القطائع عاش الناس وهم يعبدون ذلك الوثن المريع الذي ملك رقابهم وأرزاقهم وأولادهم ونساءهم . فقد كان المقطع الأعظم الوثن الأكبر ومن تحته رؤساء قطائعه لكل منهم من قوة الوثن بمقدار ما يملك من رقاب وحطام . فعمل الناس جاهدين على ان يحيوا في ظل تلك الأصنام حياة الذل راضين به قانعين على ظواهرهم ، بينما كانت قوى التقدم تعمل في سبيل نشر الديمقراطية والعمل على احياء الشعوب برد حقوقها الطبيعية اليها . على ان ذلك الجهاد الذي أخرج الناس من ظلمات عهد القطائع الى عهد الحرية الديمقراطية ، ان كان قد توج بالقضاء على الوثن الأول ، فان انقلاب النظام الاقتصادي الذي ترتب على شيوع النظم الديمقراطية ، قد رمى الأمم فيما رماهم به بأوثان جديدة لم ينقص معها عدد الأوثان الأولى بل زاد زيادة فادحة أثقلت من الانسان كاهله وحملته من الأوزار ما لا يطيق . واذا كانت الحرية الصحيحة تقضي بأن يعول المجتمع كل أفراده بأن يجد كل منهم رزقه بعمل يعمله بحسب اختياره وفي نطاق ارادته ، وان يؤدي ذلك العمل بالصورة التي تلذ له وترضيه ، اذن فما أبعدنا بنظامنا الحالي عن الحرية ، وما أقربنا الى العبودية التي هي أبغض شيء في نظام تسوده عبادة الأوثان . ولك ان تتصور نظاماً تكلف فيه كلمة حق أو قولة صريحة لأن تبعد عاملاً عن عمله أو موظفاً عن وظيفته أو زارعاً عن حقله أو سياسيًّا عن حزبه ، لا ليجد كل منهم بعد ذلك عملاً يعمله او وظيفة يشغلها أو حقلاً يزرعه أو حزباً يرحب بمواهبه ، بل ليجد ان جميع الأبواب قد سدت ، وان جميع المنافذ قد

أوصدت ، وان الفقر أخذ يقرع عليه أبوابه ، وإن الخراب بدأ يدب في كيانه الاجتماعي ، وإنه أصبح منبوذاً من المجتمع شريداً طريداً ، تلاحقه الجوع وتصارعه العري وتجالده الخطوب . إلى أن يأتي حين يسقط في مدارج المجتمع مدرجاً بعد مدرج حتى تبتلعه لجة فتلقي به المخفر النفسي أو المشيم الذي تذروه الرياح

عامة ذا يحدث ويقع لأن المجتمع بطبقاته يعبد الأوثان . وإن مجتمعاً أطبق على ان يكون وثنيّاً في نظامه الاجتماعي ، من شأنه أن يقوم عرفه السائد على ان يحفظ هذه الصورة الوثنية قائمة فيه . فاذا خرج على ذلك المجتمع منبوذ استقامت أخلاقه وتجلّى فرعه وضاقت حريته عن ان تسع الاستعباد ولم تلن قناته للذل وصلب عوده امام الجبروت الوثني الذي تتخذه الأوثان الاجتماعية سبباً للظفر بفرائسها ، شعرت جميع طبقات ذلك المجتمع ، الأوثان منهم وعبدة تلك الأوثان جميعاً ، ان ذلك المنبوذ انما هو نذير شر ورسول سوء ، يهدد نظامهم الذي ارتضاه ورضوا به

وكان هذا هو السر في ان المجتمع الموبوء بتلك الصورة الوثنية اذا خرج عليه منبوذ ، قسى عليه وشدّ عليه الخناق حتى تخمد منه الأنفاس ويروح مستذلاً ويموت فيكون نسياً

أما وقد ذكرنا الديمقراطية فانه ينبغي لنا ان نعرف مقدار ما في ذلك النظام من قوة يمكن ان تقضي على صورة الوثنية الاجتماعية التي ترزح في مصر تحت أعبائها . وأول ما نقول ان الديمقراطية كنظام مكتوب قد استكملت مجمل ما جاهد الانسان في سبيله من المثاليات . أما كنظام مطبق فان تغلب المثاليات عليها او تغلب الوثنية الاجتماعية ، أمرٌ راجع الى كفاءة الذين يطبقونها

فعلى أية صورة طبقنا الديمقراطية وبأية روح طبقناها ؟ ومحصل ذلك ان النظام الديمقراطي لكي يكون مثالي الصورة والأثر ، ينبغي ان يكون شيئاً حيّاً نابضاً في قلوب الذين يطبقونه ويتخذونه أساساً لنظامهم السياسي والتشريعي ، والا ساء التطبيق وإن صحّ المبدأ ، وماتت بموته المثاليات ورفعت الوثنية الاجتماعية رأسها الأفرن الذي هو أشبه برأس الحية ، لتنفث في عروقها وشرايينها ذلك السم الذي يفسد الحياة

***

رنت الصيحات الأولى التي تجاوبت بها أنحاء مصر في سبيل الديمقراطية منذ بضع وثلاثين سنة عندما قامت بعض الهيئات تطالب باعلان الدستور ووضع قانون التشريع الأساسي على المبادىء الديمقراطية . وأذكر ان الهيئة التي قامت تنادي بذلك كانت تناوىء الخديوية في ذلك العصر متهمة عند الرأي العام ، وكان دائرة محدودة ، بموالاتها للاحتلال البريطاني . فقامت

هيئة أخرى كانت تعمل بجد على جلاء ... ذكرى أنهم أصحاب الدستور بأنهم أنما يطالبون بالدستور إضافاً للخديوية وقصا من حواشيها تثبيتاً لاقدام الانكليز في مصر . ودار الزمن دورته المعروفة وأعلن الدستور بسعي الذين سعوا له ، والله يعلم اي يد كانت من وراء ذلك الأمر كله ، فأعددنا دستوراً على الورق وأخذنا نطبقه معلنين ان الأمة مصدر السلطات وان الحكم للاغلبية في مجلس النواب . ولكن هل أغنانا ذلك عن الماضي شيئاً ؟ الواقع ان موقفنا اليوم لم يتغير الا في الظاهر . فالوثنية الفردية التي عملنا على اقتلاع جذورها منذ الساعة التي صحنا فيها بوجوب أعلان الدستور ما زالت قائمة بكل عتابها ، والوثنية الاجتماعية التي تصورنا أن الدستور خير كفيل بالقضاء عليها هي بعينها الوثنية التي عانينا منها الأمرين منذ قرون موغلة في القدم

فعلى الرغم من أن الدستور كفل الحريات وأباحها في حدود القانون ما زلنا نظر الى الحكومة نظرة الوثني الذي ينظر الى ربّه الذي خلقه هو بيده ، وما زلنا ننظر الى كل من يمثل سلطة عليا من سلطاتها نظرا يقرب من النظر الى وثن أصغر يمثل وثناً أكبر ، وما زلنا نشعر بأن تدرج القيمة الوثنية لرجال الحكومة تتدرج ارتفاعاً وانخفاضاً بارتفاع درجة الوظيفة وانخفاضها وضخامة المرتب أو ضآلته . وكذلك لم نشعر في خارج الدائرة الحكومية بأن الحرية قد حررتنا من الوثنيات الأخرى الخارجة عن وثنية الحكومة ، فخلقنا ، وكأنما نخلق بدافع من أنفسنا رسيس فيها ، أوثاناً في الصحافة وأوثاناً في الادب وأوثاناً في الاقتصاد ، وخلقنا غير هؤلاء أوثاناً وأوثاناً جسمناها ووضعناها في حجرة مدير الاقليم ومأمور المركز ومعاون البوليس والعمدة ، ورحنا نؤمن بأن هيئة الحكم ونظام الاجتماع لا يقومان الا على مثل هذه الوثنية التي إن أساءت الى الخلق بشيء ، فانها انما تفسد نظام الحكم وتحور القوانين والشرائع الى صالح الأوثان المعبودة لا الى صالح الوثنيين

***

ان الواجب الاول على الاحرار من رجال هذه الامة أن أرادوا إن يبنوا المستقبل أن يحطموا تلك الاوثان . وستدور بحوثنا المقبلة حول كل من الصور التي تجسمت فيها هذه الاوثان الاجتماعية ، والسبيل التي تسلم الى تحطيمها